الفصل الأول

البحث الصوتي عند العرب

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
البحث الصوتي عند العرب

لم يسبق العرب في مجال البحث الصوتي إلا شعبان: الهند واليونان، ولكلِّ شعب من الشعوب الثلاثة: الهند واليونان والعرب باعثه وطريقته في البحث الصوتي.

لقد كان القرآن الكريم هو الباعث الأول للعرب لدراسة أصوات العربية وإقامة القواعد لنطقها، ولذا ارتبط الدرس الصوتي بعدد من علوم العربية، ولم يأت علمًا مستقلًّا بذاته إلَّا في العصر الحديث.

فقد ارتبط علم الأصوات بعلم التجويد لبيان كيفية نطق أصوات القرآن الكريم ووصف مخارجها وتحديد صفاتها، كما ارتبط بعلم النحو لتفسير كثير من الظواهر الإعرابية؛ كظاهرة الإدغام أو الإسكان، كما ارتبط بعلم البلاغة لبيان شروط الفصاحة وتمييز الكلام الفصيح من غيره، ورصد ظاهرة التلاؤم والتنافر بين أصوات الكلمة الواحدة، وارتبط بعلم الصرف بل وتداخل معه في كثير من مسائل الإعلال والإبدال، وارتبط بعلم المعجم منذ أن وضع الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) معجمه العين على أساسٍ صوتيٍّ وقامت بعده مدرسة معجمية، عُرِفت بمدرسة التقليبات الصوتية.

لاحت بواكير الدرس الصوتي للعربية أول ما لاحت على يد الخليل ابن أحمد الذي صدَّر معجمه بمقدمة صوتية تناول فيها عدد أصوات العربية؛ وحدد مخارجها وصنَّفها إلى تسع مجموعات، بدءًا بالأصوات الحَلْقية وانتهاء بالأصوات الهوائية، وجاءت المحاولات الصوتية عند الخليل مضطربة في كثير من الأحيان لعدد من الأسباب، من أهمها: أنه لم

يضع بنفسه مقدمة معجمه، وإنما تولَّى التقديم له تلاميذه وأبرزهم الليث بن المظفر، كما أنَّه أول من سَلَك دَرْب البحث الصوتي في العربية.

ولعل أدقَّ محاولة لوصف أصوات العربية وتفسير كثير من ظواهرها الصوتية تلك التي قام بها سيبويه (ت ١٨٠ هـ) تلميذ الخليل النَّابِه؛ فقد خصص جزءًا أخيرًا من كتاب «الكتاب» للدرس الصوتي عالج فيه كثيرًا من المسائل الصوتية مثل: الإمالة (٤/ ١١٧-١٤٢)، والوقف (٤/ ١٦٦-١٨٥)، والإشباع (٤/ ٢٠٢)، واطِّراد الإبدال في الألفاظ الفارسية المعرَّبة (٤/ ٣٠٥)، والقلب (٤/ ٣٣٥-٣٦٥)، والإدغام (٤/ ٤٣١-٤٨١) الذي يُعرف في الدرس الصوتي المعاصر بالمماثلة الصوتية Assimilation.

ولعل أهم المباحث الصوتية عند سيبويه مبحثان: الإدغام، والإمالة، فقد وافقت فيهما آراء سيبويه كثيرًا من النظريات الصوتية المعاصرة، ومن مظاهر هذا التوافق أن الدرس الصوتي الحديث يقسِّم المماثلة إلى قسمين: مماثلة كُلِّية، ومماثلة جزئية، ويُعلِّل الدرس الحديث التماثل بالسير في النطق على وتيرة واحدة؛ فالتاء تتحول إلى (ط) في قولنا: اضطرب، واصطبر؛ لأنَّ الطاء تشترك مع الضاد والصاد في الإطباق، وعلى الرغم من أن التاء تشترك مع الطاء في كل خصائصها النطقية فإن التاء غير مطبقة والطاء مطبقة، وهو ما يجعلها تتفق مع الضاد والصاد، فالتحول الذي حدث يتلخص في الآتي:

(ض + ت) ← (ض + ط)، (ص + ت) ← (ص + ط) (مطبق + غير مطبق) ← (مطبق + مطبق)، وهو نفسه ما حدث في: ازتهر التي صارت: ازدهر. (ز + ت) ← (ز + د)، (مجهور + مهموس) ← (مجهور + مجهور).

وعند سيبويه ما يوافق هذه النظرية وإن اختلفت ألفاظه؛ ففي الباب

obeikandl.com

الذي عقده تحت عنوان: «هذا باب الحرف الذي يُضارَع به حرف من موضعه، والحرف الذي يُضارَع به ذلك الحرف وليس من موضعه»، يضرب مثلا بالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال، وذلك نحو: مَصْدَرٍ، وأَصْدَرَ، والتَّصْدير، ولأنهما قد صارتا في كلمة واحدة، فضارعوا بين الصاد والدال فحوَّلوها إلى زاي أو ما يشبه الزاي: مَزْدر، وأَزْدَر، والتزدير؛ لأنَّ الزاي مجهورة مثل الدال، وإنَّما دعاهم إلى أن يقرِّبوها ويُبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد.

فالمماثلة الصوتية تُسمَّى عند سيبويه المضارعة، وسببها عنده: ليكون عملها من وجهٍ واحدٍ، وليستعمل العرب ألسنتهم في ضَرْبٍ وَاحدٍ.

ومثال آخر ضربه سيبويه للتماثل في الهمس والجهر: «قول بعض العرب: يستيع في: يسطيع، أبدلوا التاء مكان الطاء، ليكون ما بعد السين مهموسًا مثلها. وكذلك فسَّر قول بعض العرب: ازدان، بالدال، والتي أصلها: ازتان، بالتاء، بقوله: ليكون ما بعد الزاي مجهورًا مثلها.

وفي باب «ما تُقلب فيه الواو ياءً إذا سُكِّنت وقبلها كسرة» يتفق سيبويه مع نظرية التماثل الصوتي أيضًا، كما في: مِيزان، ومِيعاد، وأصلهما: مِوْزان، ومِوْعاد، فقلبت الواو ياءً ليكون العمل من وجه واحد أخفَّ عليهم.

وفي باب «قلب الواو ياءً» في مثل: حِيال، وقِيام، وأصلهما: حِوال، وقِوام يفسِّر سيبويه هذا القلب بقوله: وكان العمل من وجه واحد أخفَّ عليهم.

وفي «باب الإمالة» يتفق سيبويه مع ما يعرف في الدرس الصوتي الحديث بالتماثل بين الحركات المتجاورة Vowel-harmony، وذلك في قوله: «فالألف تُمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وإنما أمالوها للكسرة التي

بعدها، أرادوا أن يقربوها منها كما قربوا في الإدغام الصاد من الزاي حين قالوا: صَدَرَ، فجعلوها بين الزاي والصاد».

ولكي أدلِّل على دقة سيبويه في وصف أصوات العربية، سوف أعقد مقارنة بين تصنيف الأصوات عنده وعند أستاذه الخليل، لكي نرى أيهما كان أكثر دقة في التصنيف والوصف.

تصنيف الأصوات بين الخليل وسيبويه:

صنَّف الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) أصوات العربية إلى تسع مجموعات، وصنَّفها سيبويه إلى ثماني مجموعات، واتفق الاثنان على أن عدد أصوات العربية تسعة وعشرون صوتًا، وانفرد سيبويه بأن جعل لأصوات العربية ستة عشر مخرجًا، واتفقا أيضًا في وصف الأصوات من الداخل إلى الخارج، أي من الحَلْق إلى الشَّفَتين.

١- **الأصوات الحَلْقية**، وهي عند الخليل خمسة أصوات: العين، والحاء، والهاء، والخاء، والغين، أما عند سيبويه فهي سبعة أصوات لا خمسة، فقد أضاف سيبويه إلى الأصوات الحَلْقية: الهمزة والألف، وهي عنده على الترتيب الآتي: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء.

٢- **الأصوات اللَّهَوِيَّة**، وهي عند الخليل وسيبويه صوتان: القاف، والكاف، ولا خلاف بينهما في ذلك.

٣- **الأصوات الشَّجْرِيَّة**، وهي عند الخليل ثلاثة أصوات: الجيم، والشين، والضاد، أمَّا عند سيبويه فهي أربعة، أضاف إليها الياء، وهي عنده على الترتيب الآتي: الضَّاد، والجيم، والشين، والياء.

والملاحظ أنَّ تصنيف الياء عند الخليل يخالف تصنيفها عند سيبويه، فالخليل وضع الياء ضمن الأصوات الهوائية، في حين وضعها سيبويه ضمن الأصوات الشَّجْرية، والدرس الصوتي الحديث يؤيد سيبويه، فالياء صوت شَجْرِيٌّ.

يقول د. كمال بشر: ويجب أنْ نعلم أنَّ بين الياء وبين الجيم والشين قربًا شديدًا في المَخْرج، حتى إنَّ بعض الدارسين سمَّى هذه الأصوات الثلاثة: أصوات وَسَط الحَنَك، وهذه الأصوات الثلاثة يُسمِّيها العرب: الأصوات الشَّجْرية، نسبة إلى شَجْر الفم.

٤- **الأصوات الأَسَلِيَّة**، وهي عند الخليل ثلاثة أصوات: الصاد، والسين، والزاي، وهي كذلك عند سيبويه: الصاد، والزاي، والسين، والملاحظ أن سيبويه أخَّر ترتيب هذه الأصوات الأَسَلِيَّة إلى ما بعد الأصوات الذَّلَقية والنِّطَعِيَّة، وهذا التأخير يتَّفق إلى حدٍّ كبير مع ترتيب الأصوات في العصر الحديث.

٥- **الأصوات النِّطَعية**، وهي عند الخليل ثلاثة أصوات هي: الطاء، والدال، والتاء، وهي كذلك أيضًا عند سيبويه، وتقع عنده في المرتبة الخامسة أيضًا.

٦- **الأصوات اللِّثوية**، وهي عند الخليل ثلاثة: الظاء، والذال، والثاء، وهي كذلك عند سيبويه، ولكنَّ سيبويه جعلها ضمن المجموعة السابعة بعد الأصوات الذَّلَقية، والنِّطَعية، والأَسَلية، وهو مُحِقٌّ في ذلك، وتصنيفه يتفق مع التصنيف الحديث لأصوات العربية.

٧- **الأصوات الذَّلَقِيَّة**، وهي عند الخليل ثلاثة: الراء، واللام، والنون، وهي كذلك عند سيبويه وإن اختلف عن الخليل في ترتيبها، فقد قدَّم اللام

على الراء: اللام، والراء، والنون، كما أنَّ الأصوات الذَّلَقية تأتي عنده في المجموعة الرابعة مُتقدِّمة على الأَسَلية والنِّطَعية واللِّثوية.

٨- **الأصوات الشفوية**، وهي عند الخليل ثلاثة: الفاء، والباء، والميم، بينما هي عند سيبويه أربعة: الفاء، والباء، والميم، والواو، فالواو عند الخليل صوتٌ هوائِيٌّ، وعند سيبويه صوت شفوي، والدرس الصوتي الحديث يُصنِّف الواو ضمن مجموعة الأصوات الشفوية.

٩ - **الأصوات الهوائية**، وهي عند الخليل أربعة: الواو، والألف، والياء، والهمزة، وهذه المجموعة لا وجود لها عند سيبويه، فمصطلح الأصوات الهوائية لا وجود له في كتاب سيبويه؛ لأنَّ الواو عنده ضِمْن الأصوات الشَّفوية، والألف والهَمْزة عنده ضِمْن الأصوات الحَلْقية، والياء ضِمْن الأصوات الشَّجْرية.

وينصُّ الخليل على أنَّ الألف اللينة والواو والياء والهمزة أصوات هوائية في حَيِّز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء.

والحق أن الخليل قد جانبه الصواب في تصنيف هذه المجموعة، فالهمزة – مثلا – لها حيِّز مُحَدَّد هو الحنجرة وليست هوائية. أما سيبويه فقد جانبه الصواب أيضًا في وضع الألف ضمن الأصوات الحلقية، والألف في الدرس الصوتي الحديث حركة، هي الفتحة الطويلة، وعلى هذا فهي ليست من الأصوات الصامتة.

وإليك جدولًا يلخص الكلام السابق:

تصنيف الأصوات عند الخليل (ت ١٧٥ هـ)

١- الحلْقية: ع – ح – هـ - خ – غ

obeikandl.com

٢- اللَّهَوية: ق – ك

٣- الشَّجَرية: ج – ش – ض

٤- الأَسَلية: ص – س – ز

٥- النِّطَعية: ط – د – ت

٦ – اللِّثَوية: ظ – ذ – ث

٧- الذَّلَقية: ر – ل – ن

٨ – الشَّفوية: ف – ب – م

٩ – الهوائية: و – ا – ي – أ

تصنيف الأصوات عند سيبويه (ت ١٨٠ هـ)

١- الحلْقية: أ – ا – هـ - ع – ح – غ – خ

٢- اللَّهَوية: ق – ك

٣- الشَّجْرية: ض – ج – ش – ي

٤- الذَّلَقية: ل – ر – ن

٥- النِّطَعية: ط – د – ت

٦- الأَسَلية: ص – ز – س

٧ – اللِّثَوية: ظ – ذ – ث

٨ – الشَّفَوية: ف – ب – م – و

وجدير بالذكر أنَّ كلَّ مَنْ جاء بعد سيبويه من العلماء اكتفى بترديد كلامه دون أن يزيد عليه شيئًا يستحق الذكر، حتى أولئك المشهورون من

obeikandl.com

شُرَّاح كتاب سيبويه أمثال السِّيرافي والرمَّاني كانوا يقنعون في شرحهم للأصوات اللغوية بذكر ألفاظ سيبويه وعباراته ومصطلحاته كما هي.

اللهم إلَّا المحاولة الجادَّة التي قام بها ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) حين أفرد للدرس الصوتي كتابًا خاصًّا جمع فيه شتات ما سبقه، وقدَّمه في صورة منظَّمة جيدة على طريقة المعجميين في كتابه «سرّ صناعة الإعراب».

ويعني ابن جنِّي بالإعراب: الإبانة والإفصاح، يؤكده قوله ﷺ: والأيِّم تُعْرِب عن نفسها، كما يؤكِّده قول ابن جنِّي في الخصائص ١/ ٣٥: الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ.

وذكر ابن جنِّي في مقدِّمته موضوع هذا الكتاب بقوله: وضعْتُ بين يدي الكتاب وطاة (مقدِّمة) ذكرت فيها أحوال الحروف في مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلِّها، والفرق بين الحركة والحرف، والحروف المستحسنة، والحروف المستقبحة، وبعد المقدِّمة أفرد ابن جني لكلِّ حرف من حروف العربية التسعة والعشرين بابًا، وذكر فيه أحواله وتصرُّفه في الكلام، والأصلي من حروفه والزيادة، والصحيح والمعتلّ، وما يحدث له من إبدال، وقلبه إلى غيره، وقلب غيره إليه.

رتَّب ابن جنّي كتابه ترتيبًا هجائيًّا ألفبائيًّا بدءًا من الهمزة وانتهاءً بالياء، ولكنَّه وضع الألف الساكنة بعد الواو وقبل الياء، فعدد حروف الهجاء عنده تسعة وعشرون حرفًا، عقد لكلِّ حرف بابًا، تحدَّث في كلِّ حرف عن: وصف هذا الحرف من حيث الجهر والهمس، ثمّ بيَّن متى يكون هذا الحرف أصليًّا؛ أي فاء الفعل أو عينه أو لازمه، ومتى يكون زائدًا، ومتى يكون بدلًا، أي يقوم مقامه حرف آخر، وهكذا في كلِّ حرف من الحروف التسعة

والعشرين. وقد ختم كتابه بثلاثة فصول: تناول في الفصل الأول تصريف حروف المعجم واشتقاقها وجمعها، وتناول في الفصل الثاني مذهب العرب في مزج الحروف بعضها ببعض، وفي الفصل الثالث إفراد الحروف في الأمر ونظمها على المألوف من استعمال حروف المعجم، وأمَّا المادة العلمية التي ضمَّها هذا الكتاب فإنها لم تتوافر في أي كتاب آخر، فالكتاب فريدٌ في نظمه وتبويبه وموضوعه لم يسبقه إليه أحد، تميَّز بالسهولة والوضوح. وغزارة المادة العلمية وما اشتملت عليه من: آيات قرآنية وأشعار ورَجَز وأمثال العرب وكلامهم، ويُعدُّ هو وكتاب سيبويه مصدريْن أساسيين لأية دراسة صوتية لأصوات العربية، وقد نال ابن جنِّي إعجاب اللغويين المعاصرين، يقول عنه د. كمال بشر: وأمَّا وصف ابن جني لمخارج الأصوات بالصورة التي سجَّلها في كتابه وترتيبه لهذه المخارج فهو يدل على قوة ملاحظته وذكائه النادر، والحقّ أنَّ النتائج التي وصل إليها هذا العالم في هذا الوقت الذي كان يعيش فيه لتعدُّ مفخرةً له ولمفكري العرب في هذا الموضع، وممَّا يؤكِّد براعتهم ونبوغهم في هذا العلم (علم الأصوات) أنهم قد توصَّلوا إلى ما توصَّلوا إليه من حقائق مدهشة دون الاستعانة بأية أجهزة أو آلات تعينهم على البحث والدراسة كما نفعل نحن اليوم.

ويقول محقِّق الكتاب د. حسن هنداوي: والناظر في كتاب أبي الفتح يرى نفسه أمام رجل يعدُّ طودًا شامخًا في العلم، يفسِّر ظواهر التصريف واللغة والأصوات والنحو تفسير المتمكِّن المتقِن الأصيل في كلِّ فن من فنون العربية، ويأتي بنظريات لم يستطع المحدثون من علماء اللغات أن يتجاوزوها إلا في جوانب قليلة.

وبعد ابن جنِّي (ت ٣٩٢ هـ) ليس هناك جهود صوتية تُذكر حتى نصل إلى فيلسوف العلماء وعالم الفلاسفة الشيخ الرئيس ابن سينا

(ت ٤٢٨ هـ) في رسالة صغيرة سمَّاها: أسباب حدوث الحروف، عالج فيها الدرس الصوتي علاجًا فريدًا يختلف اختلافًا بيِّنًا عمَّن سبقه من علماء العربية، فقد جاء حديثه عن أصوات العربية حديث الطبيب المشرِّح الذي يعرف كنه الصوت وأسبابه، وأجزاء الحنجرة واللسان، وقد استخدم في كلامه مصطلحات صوتية لم يستعملها أحدٌ غيره، قسَّم ابن سينا رسالته إلى مقدِّمة وستة فصول، تناول في المقدِّمة إهداءه رسالته هذه إلى الشيخ الكريم الأستاذ أبي منصور محمد بن علي بن عمر الخيَّام، ثم تناول في الفصل الأول سبب حدوث الصوت، وتناول في الفصل الثاني سبب حدوث الحروف، وتناول في الفصل الثالث تشريح الحنجرة واللسان، وتناول في الفصل الرابع الأسباب الجزئية لحرفٍ حرفٍ من حروف العربية، وتناول في الفصل الخامس الحروف غير العربية الشبيهة بالحروف العربية وليست في لغة العرب، وتناول في الفصل السادس والأخير الحروف العربية من أي الحركات غير النطقية تُسمع، وهو في هذا الفصل يحاول جاهدًا أن يتلمَّس وجوه شبه بين أصوات اللغة وبين ما نسمعه من أصوات غير نطقية في حياتنا العامَّة، أي أنه يصف لنا مع كلِّ حرف ما يشبهه من الحركات التي نلحظها في حياتنا؛ سواء تمت هذه الحركات بفعل فاعل أو مصادفة، فيقول عن التاء: إنها تُسمع عن قَرْع الكفِّ بأصبع قرعًا بقوَّة، والفاء عن حفيف الأشجار، والباء عن قَلْع الأجسام اللِّينة المتلاصقة بعضها عن بعض. ومن المصطلحات الصوتية الخاصَّة بابن سينا دون غيره: القَرْع، والقَلْع، والحروف المفردة، ويقصد بها الشديدة، والحروف المركَّبة، ويقصد بها الرِّخوة، والغضروف التُّرسي، والغضروف عديم الاسم، والغضروف الطرجهاليّ، والمُكبَّى، والدَّرَقي، والتشنُّج، والحَفْز، والمحابس، والرطوبات... إلخ.